أثر عقيدة أهل السنة والجماعة في إبراز وسطية الإسلام

الإمام الشهيد البوطي

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

عندما نتحدّث عن (أهل السنّة والجماعة) في مناسبة ما, كثيراً ما يسري إلى بعض الأذهان أنّهم مذهب من المذاهب الإسلاميّة أو فرقة من الفرق الإسلاميّة التي ظهرت فتكاثرت بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

غير أنّ الذي يجب أن يعلمه كلّ مسلم بالبداهة أنّ كلمة (أهل السنّة والجماعة) تعني المتمسّكين بالوحي الذي بُعث به رسول الله متلوّاً, وهو القرآن, وغير متلوّ, وهو السنّة أي تعليماته القوليّة والفعليّة, كما تعني المستجيبين لأمر رسول الله إذ قال: (عليكم بالجماعة وإيّاكم والفرقة. فإنّ الشيطان مع الواحد, وهو من الاثنين أبعد, ومن أراد بحبوحة الجنّة فليلزم الجماعة)[1]. فصدق عليهم من جرّاء ذلك أنّهم أهل سنّة رسول الله وأنّهم المنضوون في الجماعة التي أمر بالانضواء فيها. وإنّما يصدق هذا على أصحاب رسول الله أوّلاً, ثمّ على التابعين السائرين على نهجهم ثانياً.

إذن فكلمة (أهل السنّة والجماعة) إنّما تعني الناس الذين تكوّنت منهم هيكليّة البناء الإسلاميّ, بجهد مباشر من رسول الله أوّلاً, ثمّ بما تلاه من استمرار على النهج ذاته متمثلاً في التابعين ومن بعدهم ثانياً. وإنّما يستمرّ هيكل البناء الإسلاميّ هذا بتتابع كلّ من يفِدُون على صراط الله القائم على دعامتيّ الوحي الربّانيّ متلوّاً وغير متلوّ, والانضواء في الجماعة التي أوصى بالانضواء فيها رسول الله.

ومن هنا يصحّ لنا أن نقول: إنّ كلّ من شرد عن جامعة الإسلام هذه, وآثر الانفراد عن بنيانه الذي تكوّن واستقرّ بجهد مباشر من رسول الله وأصحابه, ثمّ بجهود من استجابوا لأمره وهم التابعون فمن بعدهم, فهو خارج عن الجماعة متعرضّ للوقوع في شباك الشيطان, مخالفٌ لأمر رسول الله.

* * *

(1) رواه النسائيّ والترمذيّ من حديث عمر بن الخطّاب وقال عنه حسن صحيح.

إنّ أهل السنّة والجماعة, وقد تبيّن لنا المقصود بهم, هم المرآة الصافية لمبادئ الإسلام الاعتقادية وشرائعه السلوكيّة. فلننظر إلى حياتهم الاجتماعيّة, من خلال العلاقات السارية فيما بينهم, ومن خلال علاقاتهم مع دول الجوار, ومع الأمم والمجتمعات والدول البعيدة الأخرى.

أولاً: حياتهم الاجتماعية من خلال العلاقات السارية فيما بينهم:

سرعان ما تحوّلوا من الحالة التي كانت مضرب مثل في التنازع والفرقة والخصام الذي كثيراً ما آل إلى بغي وعدوان .. أقول: سرعان ما تحوّلوا من تلك الحالة إلى نقيضها المتمثّل في الألفة والوحدة والتضامن والتعاون على كلّ المستويات.

ولا بدّ للفكر أن يتساءل: ما الذي أحال معاداتهم إلى تصالح, وتفرّقهم إلى وحدة وتعاون؟!.. والجواب أنّ المشادّات التي كانت تظلّ مهتاجة فيما بينهم, إنّما كانت من قبلُ, بسبب أنّ أيّاً منهم لم يكن ليرضى وصاية عليه من أحد من أمثاله, ولم يكن ليقبل أيّ منهم بتبعيّة إنسان مثله. فلمّا واجههم وحي السماء, وأيقنوا أنّه صادر من لدن قيّوم السماوات والأرض خالق الكون كلّه, لم يكن لهم جميعاً بدٌّ من التلاقي عليه, ثمّ من الاجتماع والتصالح على حوض شرعه, ثمّ من التآخي والتآلف في ظلّ عبوديّتهم جميعاً لله عزّ وجلّ.

إنّ المبادئ الاعتقاديّة التي يتكوّن منها كلّ من الإسلام والإيمان, لعبت دوراً كبيراً في ترسيخ الوحدة الإسلاميّة في صفوفهم, وفي الالتزام بقرار الله القائل: **(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)**[الحجرات:10] وفي تنفيذ أمره القائل: **(فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)**[الحجرات:10].

اختلفت اجتهاداتهم في كثير مما فيه مجال للاجتهاد, ولكن اختلافاتهم لم تزدهم إلا تآلفاً وودّاً. لم نعثر على فئة أو على واحد فيهم استثمر اجتهاداته غذاءً لعصبيّته أو اتّخذ من مذهبه دعماً لأنانيّته. لم نعثر فيهم على من نثر اتّهامات الكفر أو الشرك أو الابتداع ضدّ كلّ من خالف رأيه ولم يخضع لمذهبه.

ودونك, فاستعرض خلافات الصحابة بعد رسول الله بعضهم مع بعض, هل تعثر فيهم على من نعت المخالف له بالمروق أو الابتداع, بل تأمّل في طبقة التابعين وحلقات العلم وسير المناقشات فيها, هل تجد في أخلاقيّاتهم الاجتهاديّة إلا الصورة ذاتها لأخلاقيّات الصحابة في مجال البحث والاجتهاد.

ولولا الفِرَق الإسلاميّة الجانحة التي ظهرت فيما بعد, وتكاثرت على كيان الأمّة الإسلاميّة الواحدة (أهل السنّة والجماعة) كما تتكاثر الثآليل على الجسم السوي المعافى, لامتدّ عمر ذلك المثل الأعلى, عمر أهل السنّة والجماعة صافياً عن الدخيل نقيّاً عن الشوائب.

وعلى كلٍّ فإنّ تلك الفِرَق ما لبثت أن بادت بعد أن سادت ردحاً من الزمن. وعاد سلطان الوحدة الإسلاميّة قويّاً راسخاً مستنبتاً كما كان في مناخ (أهل السنّة والجماعة).

ثانياً: حياتهم الاجتماعيّة من خلال علاقاتهم بالآخرين:

قلنا إنّما سمّي ذلك الرعيل الأوّل بأهل السنّة والجماعة لتمسّكهم بكلّ من الوحي المتلوّ وغير المتلوّ, ولانضوائهم في الجماعة التي أمر رسول الله بالانضواء تحتها.

ومن هنا أصبحت علاقاتهم مع الآخرين (غير المسلمين) من دول الجوار وغير الجوار, خاضعة لسلطان الوحي الإلهيّ, منسجمة مع ما اتّفقت عليه جماعة المسلمين.

ولنذكر ملخّصاً للأسس التي تنهض عليها الأحكام التي تنظّم علاقة المسلمين بغيرهم:

* أوّل هذه المبادئ وأعمّها وأشملها لجزئيّات الأحكام, مبدأ العدالة في الاعتقاد والحكم والتطبيق. فإنّ شرائع الإسلام كلّها, تدور على محور العدل وتقضي بهيمنته على الأوساط. وخضوع الأسرة الإنسانيّة في كلّ زمان ومكان لقانونه وأحكامه.

ألا ترى إلى مدى شموله وعمومه في قوله تعالى: **(إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)**[النحل:90], وفي قوله: **(وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)**[المائدة:8].

ألا ترى كيف عبّر البيان الإلهيّ عنه بالميزان وأمر بالاحتكام الدائم من الجميع إليه, وذلك إذ قال: **(وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)**[الرحمن:7-9], وإنّ في تكرار كلمة (الميزان) هذه أربع مرّات هنا, ما يدلّ على أهميّة هذا المحور بنظر الإسلام في حياة المجتمعات الإنسانيّة بأسرها.

وكلمة (العدل) التي قضى الإسلام بأن تكون قانون العلاقات الإنسانية, تعود في أساسها إلى معنى التقويم والاستقامة, فكلّ ما وضع مستقيماً بشكل أفقيّ أو عموديّ قيل عنه عدل أو معتدل أو عادل. فإذا حاء إلى جهة اليمين أو الشمال قيل عنه مائل أو متطرّف أي جانح إلى أحد الطرفين, ومن ثمّ فهو خارجٌ عن العدل.

وكما ينطبق هذا على الشواخص الماديّة, ينطبق على موازين المعاملات الإنسانيّة.

فإذا كانت شريعة الإسلام هي العدل, فحيثما وجد العدول عن عدلها والميل عنه إلى أحد الطرفين, فإنّ ما عُدِل به عنها لم يعد يسمّى شريعة الإسلام, ولا علاقة له به. ذلك لأنّ ((العدالة)) بحدّ ذاتها لا تقبل التفاوت في مضمونها. إنّ لها حقيقة واحدة لا تقبل التجزؤ إلى درجات ونِسب. فإذا تناقص معنى الكمال فيها ودخل في درجات ما يسمّى النسبة, فقد خرج مضمونها من معنى العدالة ودخل في معنى الظلم وحقيقته.

إذن فيخطئ من يقسم الإسلام إلى إسلام وسطي وإلى ما دونه وإلى ما فوقه, ويمضي يغرس في أذهان الناس صورة لما يسمّيه الإسلام المتحرر, والإسلام المتوسط, والإسلام المتطرّف, بل الحقيقة البدهيّة أنّ الإسلام يساوي العدالة التامّة بمعناها الكامل. فإن تناقصت العدالة غاب عنها معنى الإسلام كله.

* ثاني هذه المبادئ القرار الكلّي المتضمّن وجوب السعي إلى إقامة المجتمعات الإنسانية على أساس السلام. نقرأ هذا القرار في قول الله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً)**[البقرة:208], وفي قوله عزّ وجلّ: **(قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ)**[المائدة15-16], ونقرأ في قوله: **(وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)**[يونس:25].

وتتفرّع سائر الأحكام الشرعيّة المنظّمة لعلاقة المسلمين بغيرهم من هذا المبدأ الكليّ الشامل.

● من ذلك ما تتبيّنه في الوثيقة التي اعتمدها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في المدينة المنوّرة, من العلاقة السلميّة التعاونيّة ما بين المسلمين واليهود. يقول أحد بنود هذه الوثيقة (يهود بني عوف أمّة مع المسلمين, للمسلمين دينهم ولليهود دينهم).

● ومن ذلك التعايش الذي كان سارياً في حياة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بين المسلمين والمشركين المسالمين لهم المترفّعين عن سبل العداوة والبغضاء, مثل قبيلة خزاعة التي كانت قد دخلت في عهد رسول الله يوم صلح الحديبية. ومن ذلك إكرام النبيّ وفادة نصارى نجران واستقباله لهم في مسجده, والإذن لهم بأداء صلواتهم والاستعلان بشعائرهم الدينية فيه. ومصدر ذلك كله بيان الله القائل في محكم تنزيله: **(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)**[الممتحنة:8].

وهذا هو الدليل القاطع على أنّ الحروب التي قادها رسول الله صلى الله عليه وسلّم إنّما كانت حروباً دفاعيّة ردّاً لعدوان واقع بالمسلمين أو متوقّع يخطّط له. لا أدلّ على ذلك من بقاء كثير من أقباط مصر بعد الفتح الإسلاميّ لها على دينهم, دون أيّ إكراه وإحراج لهم من المسلمين. ولا أدلّ على ذلك مما هو معروف من أنّ ما لا يقلّ من نصف أهل الشام بقوا على دينهم بعد أن تمّ فتحها على يد أبي عبيدة بن الجراح .. وقد ظلّوا أحراراً مكرمين متعاونين مع مواطنيهم المسلمين. ولما داهمت الحملات الصليبيّة بلاد الشّام, أصرّ نصارى الشام على أن يقاتلوا الصليبيين جنباً إلى جنب مع المسلمين في خندق واحد.

وهكذا فقد رسّخ الإسلام دعائم السلم ومدّ رواقه في سائر البلاد التي امتدّ نوره إليها. وما من بلدة من تلك البلاد إلا وكانت قبل أن يدركها الفتح الإسلاميّ ساحة لحروبٍ متلاحقة وعدوان لا يكلّ ولا يهدأ.

في مصر سعت بيزنطة سعيها اللاهث إلى إنهاء وجود سائر العقائد المسيحيّة المغايرة لعقيدتها الرسميّة التي اختارتها, وذلك بالتصفية الجسديّة وملاحقة الرهبان حتّى تخوم الصحراء السوريّة والمصريّة. وفي مجزرة بيزنطية واحدة قتلت الدولة في مصر ما لا يقلّ عن مائتي ألف قبطي من أنصار المسيحيين اليعاقبة (من يسمون اليوم بالسريان الأرثوذكس) ولم يتوقف اضطهاد بيزنطة للمسيحيين العرب إلا عندما امتدّ الفتح الإسلاميّ إلى بلاد مصر والشام[1].

ثالثاً: التحفظ من التنابز بألقاب الكفر والتبديع والتشريك ونحوها:

كان في المدينة كثير من المنافقين, في عصر رسول الله ومن بعده. ولم تخل مدينة رسول الله بعد وفاته من الدخلاء والمندسّين. أمّا البلاد التي تشرّفت بالفتح الإسلاميّ, فقد كانت تعجّ بالزنادقة والمنافقين والمتستّرين بالإسلام, ثمّ ظهرت سلسلة الفِرَق الجانحة عن الإسلام من معتزلة ومرجئة وقدرية وخوارج .. إلخ, ولم نسمع, فيما بلغنا, حكمٌ على المنافقين الذين كانوا في عصر رسول الله ولا على أحد من الجانحين الذين تكاثروا من بعده, بالكفر والخروج عن الملّة.

ظهرت في تصرّفات المنافقين والكثير من أقوالهم ما يخرجهم من الملّة في نظر المتطرّفين والتكفيريين اليوم, ولكن رسول الله لم يكفّرهم ولم يأذن لأحد من أصحابه بأن يحكم على أيّ منهم بالكفر أو

(1) انظر تفصيل ذلك في فتوحات الشام لزيني دحلان, وانظر كتاب (من يحمي المسيحيين العرب) لفكتور سحاب صفحة 14 وما بعدها.

بما يستوجبه من القتل, بل عاملهم كما يعامل المسلمون في حياتهم, وصلّى على كثير منهم بعد موتهم. ولما أُخبِرَ المصطفى صلى الله عليه وسلّم بما أقدم عليه حاطب بن أبي بلتعة من تسريب خبر عزمه على التوجّه إلى مكّة فاتحاً, إلى المشركين فيها ليأخذوا حذرهم, دعاه إليه معاتباً ولكنّه لم يكفّره ولم يخرجه عن الملّة, ونزلت الآية القرآنية تنعته وأمثاله بالإيمان, ألم ينزل في حقّه قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ)**[الممتحنة:1].

ولقد أصغينا السمع, فلم نجد في علماء أهل السنّة والجماعة من كفّر أيّاً من أئمة الفِرَق الجانحة التي ظهرت في أواخر الخلافة الراشدة, بل أطلق عليها اسم الفِرَق الإسلاميّة, ولم نجد في أهل السنّة والجماعة من حرمها من هذه النسبة. ولما سُئل سيّدنا عليّ كرّم الله وجهه عن حكمه في حقّ الخارجين عليه والمكفّرين له, لم يزد على أن قال عنهم: ((إخواننا بغوا علينا)).

فما الحجّة التي اعتمد عليها أهل السنّة والجماعة في عدم إخراجهم لهؤلاء الفئات عن الملّة؟

الحجّة عمل رسول الله وموقفه الذي اتّخذه من المنافقين وأمثال حاطب بن أبي بلتعة .. والقاعدة التي انطلق منها عليه الصلاة والسلام, هي قراره الذي أكّده بأنّ على الحاكم أن يقضي في الناس بما ظهر منهم وأن يَكِلَ بواطنهم إلى الله عزّ وجلّ, وقد استخلص أهل السنّة والجماعة من مجموع ذلك ما اتّفقوا عليه من أنّ موجبات الكفر ودلائله إن بلغت إلى نسبة تسعة وتسعين في المائة في حقّ شخص ما فإنّ الحكم يجب أن يكون متفقاً مع ما يقضي به الواحد الباقي من الشاهد على إسلامه.

أمّا موقف أهل السنّة والجماعة مما يسمّى بالبدعة ونحوها, فقد اتّفقوا على أنّ البدعة هي كلّ ما أُقحم في الدين من عقائده أو سلوكيّاته ولم يكن منه. ولكنّهم اختلفوا في المسائل التي ينطبق عليها هذا التعريف, أي اختلفوا فيما يسمّيه علماء الأصول (تحقيق المناط).

فقد اختلفوا في العادات الطارئة بعد وفاة رسول الله أينطبق عليها معنى البدعة, فيجب النهي عنها .. واختلفوا في كثير من الوقائع والجزئيّات أتدخل تحت معنى البدعة المتّفق على حرمتها. مثل البحث في تفاصيل القضاء والقدر, والخوض في علم الكلام, والتوسّل بجاه رسول الله وصلاة العيد أتؤدى في المسجد الجامع أم الصحراء .. إلخ.

إنّ من تتبّع مناقشات أهل السنّة والجماعة في هذه المسائل وأمثالها, أهي من البدعة أم لا, يعلم أنّهم انتهوا من مناقشاتهم إلى الاتفاق بأنها أمور اجتهاديّة ذات وجوه ودلالات مختلفة محتملة. ومن ثمّ لم ينكر واحد من المختلفين على صاحبه في شيء منها ولم يتّهم أي منهم صاحبه بالابتداع أو

الضلال. ومن ثمّ فإنّ الاختلاف بشأنها واقع ضمن دائرة الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله, وإنّما مقياس الالتزام وميزانه الانضباط بالمنهج المتفق عليه في فهم الكتاب والسنّة والعمل بهما, ما كان غير قابل منه للاجتهاد فيُتفق عليه, وما كان منه خاضعاً للاجتهاد, فيتمّ الاجتهاد فيه ومهما وقع منهم الخلاف فيه فلا حرج.

* * *

هذا النهج الذي سار عليه سلف هذه الأمّة (أهل السنّة والجماعة) في المعتقد والسلوك, في علاقاتهم الأخويّة الإسلاميّة, وفي علاقاتهم مع الجوار القريب, ومع الأباعد من الأمم والدول الأخرى, جعل أمامهم سبيلاً مفتوحة إلى الدنيا كلّها, وأورث العالم استئناساً بهم وركوناً إلى حواراتهم وإلى دعوتهم. وليست الفتوحات الإسلاميّة التي تمّت على أيديهم إلا ثمرة لذلك النهج. ويخطئ من يزعم أنّها كانت للإجبار على الإسلام, وأنّها تمّت على أعقاب القسر والإرغام .. إنّ الغزو الذي واجه به المسلمون بلاد الشام, إنّما كان غزواً لمستعمري ومحتلي تلك البلاد من أباطرة الرومان. وكان أهل الشام سعداء بالتحرير الذي حقّقه الله لهم على أيدي إخوان لهم في الإنسانيّة ومقاومة الظلم. وآية ذلك أن من شاء من أهل الشام أن يبقى على نصرانيّته بقي عليها دون أي حرج أو تضييق ..

والغزو الذي واجه به المسلمون بلاد مصر, إنّما كان موجّهاً هو الآخر إلى الإمبراطورية الرومانيّة التي كانت تبسط سلطانها على تلك البلاد, تستلب خيراتها, وتدير رحى القتل على الأمناء والبرآء من أهلها الذين تخالف عقيدتهم الدينيّة معتقدها الذي اصطنعته لنفسها وتظاهرت بالتمسّك به. وقد ذكرتُ قبل قليل نموذجاً من المذابح التي أقدمت عليها في حقّ عشرات الآلاف من النصارى اليعاقبة في يوم واحد. ولقد كانت سعادة المصريين بالفتح الإسلاميّ الذي أنقذهم من عذابي الاحتلال والقتل, سعادةً كبرى شهد بها التاريخ وعرفتها الدنيا.

أمّا الحروب التي تلت ذلك, في عصور الأمويين والعباسيين, فما كانت إلّا ردّاً لعدوان واقع, أو لعدوان متوقّع يخطط له. ويرحم الله الإمام أبا حامد الغزالي القائل: "الروم إن لم تُغزَ غَزَتْ".

* * *

إنّ المسلمين اليوم لو كانوا أمناء على النهج الذي كان عليه سلف هذه الأمّة (أهل السنّة والجماعة) لكان حبل الاتصال بينهم وبين دول العالم ممتدّاً على سنن الاستئناس والتعاون, ولما وجدت الاتّهامات التي تكال اليوم لهم جزافاً سبيلاً سائغةً إليهم قطّ.

ولكنّهم استبدلوا بمبدأ السلام شعار الحرب, واستبدلوا بالأخوّة الإسلاميّة وإصلاح ما بينهم وبين إخوانهم اتّهامات الكفر والضلال والتبديع, فتفكّكت عرى المحبّة التي عقدها الله بتعاليمه السمحة فيما بينهم, وغدوا بعد أن جعلهم الله أمّة واحدة فئات ومذاهب وأحزاباً شتّى, فكيف يمدّون جسور التعارف والمآنسة والتعاون مع جيرانهم غير المسلمين؟ بل كيف يثق جيرانهم بذلك منهم, وهم فيما بينهم متخاصمون يتقاذفون تهم التكفير والتفسيق والتبديع؟!..

وأمّا قادة المسلمين فهم في أحسن الأحوال موزعون بين الانصراف آناً إلى الوقوف في وجه الخطط العدوانيّة التي تحاك ضدّهم من دول البغي, والتوجّه آناً آخر إلى كبح جماح التكفيريين والمتطرّفين من بني جلدتهم ورعاياهم المسلمين.

ولا ريب أنّ العدوّ المشترك يستثمر هذا الواقع لإنجاح خططه وتحقيق مآربه.

والله المستعان أن يحسّن الأحوال وأن يهدي النفوس التائهة والأفكار الحائرة.

وله الحمد في كلّ حال.